الهروب نحو الهوية في روايات الاقليات العراقية

م.م.زينا رياض هدوان
جامعة ذي قار– العراق

مقدمة:

يدور البحث حول موضوع الهوية وأشكالها المختلفة، ويتمثل المحور الأساس في استكشاف كيف تعبر الأقليات العراقية عن هوياتها الثقافية والوطنية بوساطة دراسة وتحليل رواياتهم التي تتأثر بالتهديدات والتهجير.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في أن الأقليات العراقية تواجه تحديات مثل: التهديدات والتهجير ، مما يدفعها إلى التعبير عن هوياتها الثقافية والوطنية بطرق خاصة في رواياتها، هذه الروايات تمجد الطقوس الدينية وتُظهر الحنين للوطن الأم ، مما يستدعي دراسة هذه الظاهرة وتحليلها.

أسئلة البحث:

ـــ كيف تعبر الأقليات العراقية عن هوياتها الثقافية في رواياتها؟

ـــ ما دور الدين في تشكيل الهوية الثقافية للأقليات العراقية؟

ـــ كيف تُظهر روايات الأقليات العراقية الحنين إلى الوطن الأم؟

ـــ ما الآليات التي تستعملها الأقليات في سردياتها لترسيخ هويتها الدينية وحمايتها من التهميش؟

أهداف البحث:

- استكشاف كيفية تعبير الأقليات العراقية عن هوياتها الثقافية والوطنية في رواياتها.
- تسليط الضوء على دور الدين كركيزة أساسية للهوية الثقافية في المجتمع العربي
- تحليل كيف يتم تمجيد الطقوس الدينية في الروايات كنوع من الحماية للهوية.
- تتبع ظاهرة الحنين للوطن الأم لدى الأقليات، ولاسيما المهجرين منهم .
- فهم الهوية الوطنية كبوتقة صاهرة تجمع الهويات والانتماءات المختلفة لدى الأقليات.

أهمية البحث:

يكتسب البحث أهميته من كونه يدرس موضوعًا حساسًا ومهمًا وهو الهوية، وتأثير التهجير والتهديدات على الأقليات العراقية، ويُسهم في فهم أعمق للثقافة العراقية المتعددة وإبراز التنوع الاثني والطائفي، ويقدم تحليلا للرواية كوسيلة للتعبير عن الأنثروبولوجيا الثقافية للشعوب، ويسلط الضوء على آليات التماسك الثقافي والديني التي تلجأ إليها الأقليات للحفاظ على وجودها.

منهج البحث:

لقد اتجه مسار البحث على وفق المنهج الوصفي التحليلي، إذ عمد الباحث إلى تحليل الروايات الخاصة بالأقليات العراقية لفهم كيفية التعبير عن الهوية الثقافية والوطنية.

الكلمات المفتاحية: الهوية ، الأقليات العراقية، الهوية الثقافية ،الهوية الدينية ، الهوية الوطنية .

Escape towards identity in Iraqi minority novels

Zina Riyad Hadwan AL-Ghazi

Abstract:
This research explores how Iraqi minorities express their cultural and national identities through their narratives، influenced by threats and displacement. These narratives glorify religious rituals and demonstrate a longing for the homeland. Cultural identity is defined as a set of distinctive cultural traits of a human group. In a diverse Iraq، popular culture is not pure but rather hybridized. Religion is a fundamental pillar of cultural identity in Arab society. National identity، on the other hand، appears as a melting pot that gathers various identities and affiliations. It is defined as a socio-cultural and historical product that connects people. Members of minorities، especially those who have been displaced، declare their attachment to their homeland as a memory and their roots.
Keywords: Identity، Iraqi minorities، cultural identity، religious identity، national identity.

مدخل:

يعد (وليم جيمس) عالم النفس الأمريكي صاحب أول أطروحات نفسية حول موضوع الذات والهوية الذاتية عام 1890، وهو أول من وضع مفهوم (الأنا) بوصفه تعبيراً عن الذات الفاعلة للإنسان ومكوناتها ومشاعرها وقد قام بتقسيمها إلى الذات المادية، والذات الاجتماعية، والذات الروحية (نصر، 2010)، أما عالم النفس الأشهر في هذا المجال (فرويد) وضع الذات والتي هي تعبير عن الجوهر الأساسي للهوية الفردية في ثلاثة تقسيمات هي (الهو)، و(الأنا) وتمثل الجزء الذي يتفاعل ويتأثر بالعالم الخارجي ويكون الإدراك والشعور والعقل ويتفاعل مع البيئة الاجتماعية، أما (الأنا العليا) فهي تمثل المحددات السلوكية والثوابت القيمية التي بموجبها يُضبط سلوك الفرد وتنشأ بفعل قوة المجتمع عملية التنشئة الاجتماعية وتولد الضمير (نصر، 2010)إذ يقدم الروائيون من أبناء الأقليات كيفية تأسيسهم للحالة الوجودية التي عمدوا إلى إثباتها، أو نكوصها عبر ظاهرة الكتابة.

المبحث الأول

صورة عامة عن الرواية

رواية "المطيرجي" للكاتب إيلي عمير هي عمل أدبي يسرد قصة يهود العراق من خلال عيون شاب يهودي عراقي يُدعى "كابي"، وتصور حياة بغداد في الأربعينات والخمسينات، مزجاً بين الحنين إلى الوطن وحب الثقافة العراقية (الغناء، الأكلات، اللهجة البغدادية) وبين الصراعات السياسية التي أدت إلى هجرة اليهود، مع التركيز على قصة حب شخصية وتجارب السجن والبحث عن الهوية، وتقدم نظرة فريدة على هذه الفترة التاريخية الهامة.

الهوية الثقافية

تتجلى الهوية الثقافية بأنها " مجموعة السمات الثقافية والمهيمنة خلال فترة ثقافية طويلة الأمد والتي تميز جماعة بشرية ما من غيرها من الجماعات" (سبيلا، 2009)، ولما كان العراق بلد متعدد الاثنيات والطوائف فلا يمكن لثقافته الشعبية بصورة خاصة أن تكون "ثقافة منفردة ونقية محض، بل كلها مهجنة مولدة متخالطة متمايزة إلى درجة فائقة وغير واحدية "

(سعيد، 1997) ، وهذا مايجعلنا نعتقد أن الانسان في الغالب يحمل مجموعة هائلة من الهويات الثقافية لكنه يتقمص الهوية التي يحاصرها تحدٍ ما، والمرجحة للإنتهاك فيتقوقع ويتقولب حولها لتكون حقيقته العليا، كما يعد النص الروائي من " أخطر الوسائل التي تعبر عن الأنثروبولجيا الثقافية للشعوب، وتميط اللثام عنها " (العجيلي، 2004)،

يعد الدين من أبرز مرتكزات الهوية الثقافية المهمة في المجتمع العربي فهو " القوى المركزية التي تحرك البشر و تحشدهم " (الشايب، 1999)

وفي رواية (المطيرجي) مثلت (أم كابي) انتماءها الديني من خلال إلحاحها على زيارة ضريح النبي حزقيال (ذو الكفل) الذي يعد معلما دينيا وحضاريا وتراثيا مشتركا بين الدين اليهودي والدين الإسلامي (الربيعي، 2017) بوصف حزقيال (ذو الكفل) أحد أنبياء اليهود، وفي الكتاب القديم هناك سفر كامل بإسمه وهو كذلك أحد الأنبياء الصالحين عند المسلمين، وبسبب ذلك الايمان المشترك صار وسيلة للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى لدى المؤمنين برب موسى عند اليهود، أو المؤمنين برب محمد عند المسلمين، فكان يقصده الناس لزيارته والتبرك به مؤكدين تمسكهم بديانتهم وطقوسها فتقول : **" النبي حزقيال سوف يحمينا، صرحت باسم النبي الذي كان عمي سمي على اسمه، الذي يقال إنه مدفون في (الكفل)، وهي مدينة صغيرة على نهر الفرات. سنوياً كانت تحج إلى قبره حيث كان جد أبي قد أنقذه من التدمير من خلال رشوة الموظفين الأتراك كي لا يسووه والخان الملاصق له مع الأرض "** (عمير، 2018)

فالأقليات حينما تشعر بأن تاريخها الديني مهدد بالمحو والإلغاء من قبل الأكثرية تحاول من خلال سردياتها التمجيد بطقوسها وممارساتها الدينية، فتبالغ في ذكر نعم الله عليها وكأنها هبات خُصّت بها دون سواها، فمن خلال البحث عن مكافئ رمزي ينفخ فيها ليحولها إلى أغلبية فخرية متخيلة، فإنها ستخترع أصل صناعي متوهم، لأجل ترصين الأفراد بأسباب ثقافية لتفوقهم، وجدوى قلتهم، تستطيع الأقلية من خلال ذلك بإضافة رصيد وهمي يمكن استثماره ثقافياً بعملية التوازن، فيجعل الأفراد المنتمين للأقلية يشعرون بتضخم رمزي للأنا الجمعية، وتصور أن رصيدا مؤجلا جاهزاً للإتكال عليه في حال حصول

أخطار محدقة، لأن ذلك التوهم يضفي مشروعية رمزية على وجود الجماعة ومكافئاً معنويا يدفعهم للتكتل والتوحد (مطر، 2023)، وهذا ما صورته رواية (لمطيرجي) **" إنهم لا يصفحون عنا لأننا لم نصبح مسلمين ونقبل بمحمد باعتباره أعظم الأنبياء. إنهم يحسدوننا لأننا كنا شعب الله المختار حينما كانوا هم أسلاف هاجر، خادمة (امنا الرئيسة)، سارة، ولا يمكنهم أن يقتنعوا بأن قرآنهم مسروق من (الكتاب المقدس) الخاص بنا، الذي أخذوا منه حتى إيمانهم برب واحد. نحن نسبقهم في كل شيء. وحتى إننا كنا قبلهم هنا في العراق "** (عمير، 2018)إذ يشكل الشعور بالاصطفاء أحد أهم عوامل ترصين الهوية، مهما كان حجمها، لأن ذلك الرصيد المؤجل يجعلها تكتنز بأسباب خفية للقوة والاعتداد، وهو اصطفاء يمكن ملاحظته أيضا لدى المسيحيين حين يعتقدون أن المسيح ابن الله، وإن ذلك الامتياز يجعل لاختلافهم أفضلية رمزية، ويمكن ملاحظة ذلك في رواية (يامريم) التي ضمنها سطور من الإنجيل **" «ولّما جاء يسوع إلى نواحي قيصرية فيلبُّس، سأل تلاميذه قائلاً:«من يقولُ الناس إنّي أنا ابنُ الإنسان؟» فقالوا: « قومٌ: يوحنّا المعمدانُ، وآخرون: إيليّا، وآخرون: إرميا أو واحد من الأنبياءِ» قال لهم:« وأنتم، من تقولون إنّي أنا؟» فأجابَ سمعانُ بطرسَ وقال:« أنتَ هو المسيحُ ابنُ اللهّ الحيّ!» فأجابَ يسوع وقال لهُ:« طوبى لك يا سمعانُ بنُ يونا، إنَّ لحماً ودماً لم يُعْلِن لكَ لكنَّ أبي الذي في السماوات. وأنا أقولُ لكَ أيضاً: أنت بطرس، وعلى هذه الصخرةِ سأبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها.»"** (انطوان، ط8، 2022)فسنان أنطوان يستدين التاريخ المقدس والأسطورة من أجل ترصين الهوية لديه بأثر رجعي، فنراه يسكب عليها مختلف أنواع التقديس والمجد لكي يجعل لانتمائه معنى؛ لأن الأقليات " المعرّضة للانتهاك تصدق أكثر أساطيرها المؤسسة والسرية بسبب حاجتها للاتكاء على ذاكرة أسفنجية تقاوم بها الانتهاك بواسطة القدرة على التمويه وإنتاج الذرائع الرمزية وتكون قادرة على إنتاج تبريرات الاستبسال والتصدي" (مطر، 2023) والتماهي مع الآخر عبر ربطه بنقطة انتماء مشتركة، ويعد تفشي الخطر الارهابي المحيق بكل شيء الذي يجعل من استدعاء القوى الروحية ضرورة حتمية تظلل

الهوية المسيحية من هجير التطرف، فكلما تعرضت الهوية وخصوصاً الدينية إلى الطرق ازدادات تشبثاً بخشبة انتمائها.

وتعد شخصية (حنّة) في رواية (يا مريم) من أكثر الشخصيات التصاقاً بالهوية الدينية وذلك من خلال أسمها الذي يطابق أم السيدة مريم العذراء المشبع بالدلالة الدينية، من خلال ذكره في الكتاب المقدس، ولعل من الاستهلالات التي تؤكد الانتماء ما جاء على لسان (يوسف): " **ذهبت إلى الكنيسة قبل شهر وطلبتُ من الكاهن تقديم قدّاس عن راحة نفسها في ذكرى وفاتها، وتبرّعتُ للكنيسة بمبلغ إضافي**" (انطوان، ط8، 2022) يقدم لنا النص هوية دينية تمثل الديانة المسيحية من خلال حضور مفردات وطقوس الكنيسة والقداس، وكل ما يتعلق بطقوس الصلاة على أرواح الموتى بموجب الديانة المسيحية، ومن مصاديق هذا الانتماء أيضا ما جاء في وصف غرفة (حنّة) التي حوّلتها إلى كنيسة مصغرة " **بقية الغرفة كانت مكرّسة للأيقونات ولتماثيل وتذكارات العذراء ويسوع الصغيرة التي كانت تهوى جمعها. كنت أحياناً أشاكسها وأقول لها إن كل ما ينقص غرفتها لكي تكون كنيسة مصغّرة هو المذبح والبخّور. فكانت تقول لي: أي ومنو يقدّس إنت؟**

حتى القدح الصغير الذي كان يوضع عند مدخل الكنيسة ويملأ بالماء المقدس كي يبلل المصلّون سبابتهم به ليرسموا علامة الصليب على وجوههم عندما تطأ أقدامهم أرض الكنيسة، كانت قد وضعت نسخة منه داخل الغرفة على الجدار إلى اليمين من الباب وتحت نقطة الكهرباء" (انطوان، ط8، 2022) فالنص يستحضر كل أدوات الانتماء للديانة المسيحية (تذكارات العذراء ويسوع، المذبح والبخور، والقداس، والقدح الذي يملأ بالماء، وعلامة الصليب) ويُظهر تقليداً عراقيا لا يخص المسيحين فقط وإنما أغلب الديانات والطوائف الأخرى وهي ظاهرة الاحتفاظ بالتماثيل والصور والتذكارات التي تدلل على إنتماءاتهم الدينية. وهذا لم يكن كافياً في نظر(حنّة) لتأكيد الانتماء للهوية الدينية؛ لاعتقادها باقتران ذلك بالحضور الدائم إلى الكنيسة " **ردّت عليه حنّة بعصبية:**

ليش ماتروح إنت للكنيسة وتكفر عن ذنوبك؟

أنا ما عندي ذنوب وما كِنْ أذّيتو أحد

هاي شلون حَكي هذا؟ ما يْكفّي ما تِتْذي أحد. لازم تكمّل واجبك" (انطوان، ط8، 2022)؛ لتأكيد الإيمان بالسيد المسيح والسيدة العذراء على طريقتها التي تستلزم إيماناً بالمراسيم وزيارة الكنيسة، وليس على طريقة شقيقها الذي ظل حريصاً على تجنب كل أشكال التعصب أو التشدد سواء أكان ذلك دينياً أم آيديولوجيا (جاسم، 2019).

لعل الخوف والقلق من التطهير الإثني الذي عاشه المسيحيون شكّل ردَّ فعل في نفوسهم وأصيب بعضهم بالتعصب، والتعصب هو عملية تنفيس إنفعالي عما يعتلج في النفس من توتر وكراهية وعدوان (مكبوت) دفاعاً عن الذات وعمّا تحب وعمّن تحب، لذا فالشخص المتعصب لا يقبل أن يستمع إلى الآخر ولا يتقبّل وجهة نظره لأنها تخالفه وتتعاكس معه ويرى نفسه الأصح ويملك كل مقومات الحياة التي لا يجد وجودها في الآخر (عباس، 2016)، وقد استعملها الراوي لتكون مُعبرة عن تهديد الهوية في الخطاب الذاتي الذي عكسته حوارات (مها)، والشعور الذي لازمها بأنها أقلية في مجتمع يتشكل من مكونات عدة وعليها أن تحافظ فيه على هويتها وخصوصيتها وأن لا تسمح لبقية الأقليات بإزاحتها أو إلغائها (العزاوي، 2012) وغضبها المتكرر وكره الآخر والحنق عليه، فتستند مها في بناء موقفها الرافض للآخر إلى خطاب دوغمائي أحادي الصوت والدلالة والتعبير عن ذلك في مناجاة السيد المسيح **" سامحني يا يسّوع . أعرف بأنك قلت «أحبّوا أعدائكم» لكنّي لا أستطيع أن أحبهم. لا أستطيع. لا أفهمهم ولا أستطيع أن ألجم الحقد والتقزز اللذين أشعر بهما كثيراً "** (انطوان، ط8، 2022) فالمتعصب يتعامل بخشونة واضحة وسلوك بعيد عن التسامح وهذا ما كانت تتعامل به مها مع الآخر المختلف عنها، ويشكل المقدس في هذه السردية حداً نافيا للآخر، ويضع الحواجز أمام قبوله، فكراهية مها تشكل حاجة أو مصل تحصين لحماية هويتها من المحو. شخصية مها تبدو بلا ملامح، فتارة نجدها تهرب من هويتها وتسعى لتقمص عناوين جديدة لأن هويتها لم تكن قادرة على استيعابها، أو توفير عناصر حماية لها، وتارة أخرى نجد ان مها تستغرق كثيرا في تفاصيل التعصب لانتمائها، وتحاول بشتى صنوف التعزيز إغراق هويتها الأولى بصنوف الحماية والتحصين، على ان ذلك الاضطراب والتذبذب يحيلنا إلى فهم الهوية بأنها عدوى وجدانية تستوطن أعماق

الإنسان وتظل تجذبه إلى مداراتها مهما حاول الهروب منها او البراءة من تجلياتها، لأنها مسؤولة عن تكوينه الثقافي والوجداني الأول.

المبحث الثاني

الهوية الوطنية

بمقدار الأدوار التي يشغلها الإنسان في حياته تتعدد هوياته و انتماءاته، وتعد الهوية الوطنية هي البوتقة الصاهرة لجميع هذه الهويات والانتماءات، فعملية تذويب هذه الولاءات يتطلب من الفرد التمسك بالهوية الوطنية التي تُعرف بأنها " نتاج اجتماعي ثقافي تأريخي عام، وتمثل علاقة متكاملة، وتمثل علاقة متكاملة وتغطي مدى واسعاً للتصنيف، وتعطي الناس شعوراً بأنهم مرتبطون ببعضهم برابط محدد وتتجاوز كل الولاءات الطبقية " (هاني، الدولة والمواطنة نحو مفهوم مركب للهوية الوطنية العراقية، 2016)، ولعلّ الظروف الموحدة التي يمر بها أفراد الأمة تولد مشاعر متشابهة وتخلق إحساساً جمعياً لتلك المجموعة البشرية المرتبطة بلغة واحدة وتاريخ واحد، إذ يمكن القول إن " الهوّية الوطنية هي الصورة الجماعية المتكونة أو الانطباع المتوالد لدى أفراد الأمة عن أنفسهم وثقافتهم التي هي طابع الأغلبية من الأفراد " (جبر، 2010).

يجنح أبناء الأقليات إلى إعلان تعلقهم بحب الوطن لأنه يؤكد نوعاً من الإرتباط بالذكريات والجذور والعلاقات الإنسانية الايجابية، وخاصة المهجريّن منهم والنازحين والمترحلّين وكل الذين غادروا أوطانهم قسراً أو اختياراً، فالوطن في نظرهم هو وطن متخيّل وليس حقيقي فلا يستطيع المنفي الانخراط الكامل في بيئته الجديدة، ولا يتمكّن من قطع الصلة بالمجتمع القديم الذي ولد فيه وهذا ما نجده في رواية (قسمت)، إذ بقي الكرد الفيليون يعشون على ذكريات العراق رغم ترحيلهم منه " **إننا عراقيون لنا بيت كبير في واحد من الأحياء الجميلة في بغداد. بيتنا يا أبي! البيت الذي بذلتَ الكثير من أجل شرائه وبذلت الوقت والجهد ليبدو مرتباً وأنيقاً..... كنتُ أعيش بتساؤلات مضطربة لا تهدأ. من تراه سكن بيتنا من بعدنا... لماذا أنا جالسٌ هنا مرتدياً هذا الزي مع هؤلاء القوم الذين بالكاد أفهم ما يقولون؟**" (النداوي، 2018) فيتوهّم لؤي مجيد الصائغ صلة مضطربة وانتماءً

مهجناً بعدما هُجّر إلى بلاد ايران وهو في مقتبل العمر ومن ثم إلى أوروبا بعدما أصبح شاباً ناضجاً، وهواجس وذكريات العراق لا تفارق خياله مذ رحيله عن وطنه، فأصبح يختلق بلاداً في ذهنه تلاحقه أطيافها في المنفى " فما إن يرتحل المرء أو يُرحَّل عن مكانه الأوّل حتى تتساقط كثافة الحياة اليوميّة وتنحسر وتتلاشى، وتحلّ محلّها ذكرياتٌ شفّافة تدفع به إلى نسيان الوقائع المريرة، وبمضّي السنوات يبدأ المنفيّ في تخيّل بلاد على سبيل الاستعادة والتعويض، وهي أمكنة تتخلّق في ذاكرته كتجربة شفّافة وأثيريّة، يغذّيها شوق إلى أماكن حقيقيّة تلاشت إلا كومضات بعيدة في عتمة حالكة" (ابراهيم، 2008) فيقول " **أسترجع أحياناً في ذهني الموسيقى والأغنية المصاحبة لمسلسل الأطفال «افتح يا سمسم» الذي كان أخي أكرم يحرص على مشاهدته دون أن يفوت حلقة، فتخنقني الذكرى حنيناً غير أنني أعاقرها ممزوجة هذه المرة بروحي الثملة باللهفة إلى الماضي الذي لم يكن جميلاً أو سعيداً لكن يكفي أنه كان وأنني كنتُ، يطعنني إحساس شبيه بالحنين في صدري كلما استذكرت في ذهني الأوقات الحميمية التي كنا نقضيها كأسرة في متابعة مسلسل «چراغ خانة».. ولعل الذكريات هي وحدها القادرة على خلق الأوطان فينا**" (النداوي، 2018) فالحنين الخاص بالمنفى يدفع الفرد في العادة لكي يكون غير مبالٍ بالقيم والخصائص المتعلقة بالثقافة المضيفة (ابراهيم، 2008)، وهو ما لمسناه جلياً في رواية (الحفيدة الأمريكية) على لسان بطلتها (زينة بهنام) إذ تقول :" **لم اسمع والدتي تتحدث بغير اللهجة العراقية في البيت، رغم أبي كان يريدنا ان نتعلم أيضاً الآشورية، لغته الأم، أما لغة الشارع والعمل ونشرات الأخبار. نلوي فكوكنا وننطق بها، لحظة نضع الأقدام على عتبة المنزل، تدور سيارتنا بنا وباللغة الانكليزية من شارعٍ إلى شارع، ومن سوقٍ إلى سوق، حتى إذا عادت إلى موقفها المسقوف بالجينكو أمام المبنى، لبسنا لغتنا الأخرى ودلفنا بها إلى البيت** " (جي، 2009) إن تمسك عائلة زينة باللغة العربية يمثل تمسك عائلتها المسيحية بالهوية الوطنية العراقية واعتزاز والدها بها، بالإضافة إلى ذلك تشير الكاتبة إلى سخرية أبطال روايتها من اللغة الانكليزية من خلال عبارة (يلوون فكوكهم بها) وتغليب اللغة العربية عليها بوصفها هوية وطنية أصيلة .

ثم تنقل الروائية صورة أخرى للتمسك بالهوية الوطنية أثناء منح الجنسية الأمريكية لأم زينة من خلال حفل بهيج أقيم بهذه المناسبة، إذ تقول : **" حين راح الأمريكان الجدد الحاصلون على الجنسية، للتو، يتعانقون ويتبادلون التهاني .. حينها سمعت صوت أمي يتحشرج وكأنها تختنق، والتفت إليها ورأيت وجهها الأبيض الوديع وقد صار قرمزيا كمن داهمتها حمى، والدموع تهطل غزيرة من عينيها وتفر متبخرة من سخونة خديها، مثلما يحدث عندما تتساقط قطرات الماء من إبريق الشاي على عين الموقد الكهربائي. مددت وتلقفت يد ماما المتيبسة، بينما الجموع تضع أيديها على مواضع قلوبها وتلهج بالنشيد الوطني الذي تعزفه فرقة الجاز: (يارب احفظ أمريكا...غاد بلس أمريكا). وكان صوت السيدة العراقية بتول السّاعور، أمي، هو النشاز الوحيد الذي يولول بالعربية:(سامحني يا أبي.. يابا سامحني)."** (جي، 2009) تعكس حالة بتول الساعو اعتزازاً ضمنياً بالفخر بهويتها الوطنية وأيضاً الخجل من قبول الجنسية الأمريكية بوصفها ضرورة حتمية ذهب إليها المسيحيين مجبرين هرباً من الواقع المرير الذي عاشوه في العراق، وربما جاءت العبارة الأخيرة لبتول الساعور (سامحني يا أبي.. سامحني يابا) للتخلص من حجم المرارة والشعور بالأسف، فهي من خلال تقديمها الاعتذار لأبيها تقدم الاعتذار لأصولها وتاريخها وأرضها في العراق، وهو اعتذار يكتسب اهمية مصارحة الذات بتعميق الحس الوطني، وينعكس ذلك من خلال مفردة عامية تعظيما لحالة الوجع البغدادي بلفظة (سامحني يابا) فكأنها تطلب الغفران من أبيها أو من الجذر المرتبط بأرض الآباء والأجداد .

وفي رواية أخرى تتضح علاقة الانتماء للأرض والحرص على البقاء على الرغم من كل الظروف والمحن التي رافقت الفرد الأقلي على مدار التاريخ، وقد امتازت الروايات اليهودية بموضوع الهوية الوطنية؛ لأن الروائيين قد عانوا من تهجير قسري وشعروا بالاقتلاع وذلك لنفيهم وتهجيرهم، فأتسمت الرواية اليهودية بثيمة الحنين إلى العراق وقد وظفت الهوية الوطنية عن طريق ذكر الحوادث التي مرت بها الطائفة مثل : الفرهود، وإسقاط الجنسية العراقية عنهم بالاضافة إلى الهجرة والتهجير، فنرى في رواية (نزولة وخيط الشيطان) أن (سلمان حشوة) يعاني من سلب حريته في تقرير مصيره **" لقد رسموا مصيري لي... رسموه**

في بغداد، وفي الأمم المتحدة، وفي إسرائيل، لكني وحدي لا اعلم ماذا سيكون مصيري" (نقاش، 1986) يشير سليمان حشوة إلى حال اليهود بعد قرار تهجيرهم وإعلان مصيرهم باقتلاعهم والهجرة إلى إسرائيل.

تحول الوطن لدى الهاربين نحو هويتهم إلى يوتوبيا متخيلة وذاكرة قصية لا علاقة لها بالوطن سوى اسمه، فالوطن والهوية الوطنية رمزية يغلفها الانسان بشتى صنوف التزويق لإنها بالاساس وهم ثقافي يستعيره الانسان ليشد علامات ارتباطه بالمكان الذي يضمه والجماعة وهذا ما وجدناه متمثلاً في روايات سمير نقاش فنجد مثلاً مدينة (بغداد) حاضرة في جميع رواياته إذ يصف الروائي هذه المدينة وصفاً هندسياً رائعاً يدلل من خلاله على مقدار الشوق والحب لهذا المكان " **ثمة في كل شيء فسحة. وقصور ممتدة ضاربة في الطول وفي العرض، وحدائق وارفة فيها تنطبق أوصاف الجنة حرفاً حرفاً وشوارع في عرض دجلة "** (نقاش، 1986) ولكي يسبغ المرء على عناوين وجوده معان متجددة فانه يعطي لذلك الانتماء غايات لا تكون فيه في الواقع لانه يؤثثها من متخيله العميق، والوطن لا يحمل صورة واقعية عما يعايشه الانسان فيه انما صورة متوقعة لما يريده منه لهذا يظل شعارا على الدوام وهو ما يجعل الهوية الوطنية منتفخة على الدوام ومدججة بكل ما يجعلها وهما لذيذا " **وحين سلمت نفسي لمطار «أرلاند» سألوني من أي جحيم أتيت فأجبت دون تفكير انني عراقي. وهنا كان سوء الفهم . تلقائياً أتوا لي بهذا المترجم للغة العربية والذي لا يفهم حتى « الله بالخير» التي ألقيتها عليه.**

-اسم حضرتك إيه؟

أجبت متردداً.

-لؤي.. أميد.

وفهمت انه ترجم للمحقق ان اسمي هو لؤي أميد.

فقلت بسرعة مصححاً:

-لاأاسمي لؤي . يعني بالعراق اسمي لؤي بس من سفروني لأيران صار اسمي أميد ثنينهم إسمي.

-حضرتك إيراني و لا عراقي؟

-عراقي مسفر إلى إيران منذ الثمانينات.

-يعني مواطن إيراني؟

فاصررت قائلاً بحدة:

-آني عراقي ! طلعت من إيران لأني عراقي الأصل ومستحيل أقدر أعيش هناك." (النداوي، 2018)

نجد شخصية (لؤي) تمتلك الاصرار على عشق الوطن والانتماء إليه لما يحمله من وشائج وثيقة بالوجدان والنفس، إذ من الصعب إحلال البديل مكانه، فتهيمن نوستالجيا الوطن على شخصية لؤي بصورة جلية جعلت من الشخصية تصّر على انتمائها لوطنها بوصفه مدعاة للفخر، فيفصح لؤي عن انعدام الأمل في العثور على هويته الشخصية في ثقافة أخرى على الرغم من تفاعله مع تلك ثقافة وتمكنه منها،إلا أن وطنه بقي حاضر في قرارة نفسه فيقول: **" ألا تجده أمراً باعثاً للسخرية أنني منذ سلبت مني هويتي العراقية وعشت على أمل استرجاعها لم يتسنَ لي ذلك إلا هنا، في هذا المهجر البعيد جداً فكنت أقسم بعراقيتي رغم قدومي إليهم بجواز سفر إيراني واسم إيراني وحتى ملامح قد تبدو إيرانية دمغتني بها السنوات التي عشتها هناك "** (النداوي، 2018)، إن استحضار نوستالجيا الوطن عند الروائيين اليهود او الصابئة او المسيحيين هو نوع من عملية تخليق ثقافية للوطن المفقود في الواقع لكنه موجود بقوة في الذاكرة.

النتائج:

يعد الدين من أبرز مرتكزات الهوية الثقافية المهمة في المجتمع العربي، فهو "القوى المركزية التي تحرك البشر وتحشدهم". وتتجسد هذه الأهمية في رواية "المطيرجي" حيث تمثل (أم كابي) انتماءها الديني بإلحاحها على زيارة ضريح النبي حزقيال (ذو الكفل)، الذي يعد معلماً دينياً وتراثياً مشتركاً بين اليهود والمسلمين.

عندما تشعر الأقليات بأن تاريخها الديني مهدد بالمحو والإلغاء من قبل الأكثرية، فإنها تحاول من خلال سردياتها التمجيد بطقوسها وممارساتها الدينية. هذا التمجيد يمكن أن يؤدي إلى اختراع أصل صناعي متوهم لترصين الأفراد بأسباب ثقافية لتفوقهم وجدوى قلتهم. يمكن أن يشكل الخوف والقلق من التطهير الإثني رد فعل في نفوس الأقليات، فيصاب بعضهم بالتعصب. هذا التعصب هو عملية تنفيس انفعالي عما يعتلج في النفس من توتر وكراهية وعدوان (مكبوت) دفاعاً عن الذات. ويتضح ذلك في شخصية (مها) في رواية (يا مريم)، حيث تشكل كراهيتها للآخر مصل تحصين لحماية هويتها من المحو.

تعد الهوية الوطنية البوتقة الصاهرة لجميع الهويات والانتماءات الأخرى. وهي "نتاج اجتماعي ثقافي تأريخي عام" يربط الناس ويتجاوز الولاءات الطبقية. الظروف الموحدة التي تمر بها أفراد الأمة تولد مشاعر متشابهة وتخلق إحساساً جمعياً.يجنح أبناء الأقليات إلى إعلان تعلقهم بحب الوطن، خاصة المهجرين والنازحين. فالوطن في نظرهم هو وطن متخيل وليس حقيقي. لا يستطيع المنفي الانخراط الكامل في بيئته الجديدة ولا يتمكن من قطع الصلة بالمجتمع القديم. كما يتضح في رواية (قسمت) حيث بقي الكرد الفيليون يعيشون على ذكريات العراق رغم ترحيلهم.

المصادر والمراجع

أ.د.ناجي عباس مطر. (2023). *اللاشعور الثقافي وتناقضات الاعتقاد، فضح المكبوت الطائفي للشعراء اليساريين*. مجلة كلية التربية: جامعة واسط، العدد:51.

أ.م.د. نوال قاسم عباس. (2016). *التعصب العقائدي والمذهبي، أسبابه النفسية، طرق معالجته*. جامعة بغداد: مركز البحوث التربوية والنفسية، العدد 84.

ادوارد سعيد. (1997). *الثقافة والامبريالية*. بيروت: دار الآداب.

أنعام كجه جي. (2009). *الحفيدة الامريكية*. بيروت- لبنان: ط2.

إيلي عمير. (2018). *المطيرجي*. منشورات الجمل.

جعفر نجم نصر. (2010). *سسيولوجيا الذات والآخر في الثقافة العربية والإسلامية*. بغداد: كلية الآداب.

حوراء النداوي. (2018). *قسمت*. بغداد- بيروت: منشورات الجمل، ط1.

د.عبد الله ابراهيم. (2008). *موسوعة السرد العربي، ج2*. بيروت: المؤسسة العربية للدراست والنشر.

دهام محمد العزاوي. (2012). *مسيحيو العراق محنة الحاضر وقلق المستقبل*. الدار العربية للعلوم: ناشرون، ط1.

سمير نقاش. (1986). *نزولة وخيط الشيطان*. القدس: رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق.

سنان انطوان. (ط8، 2022). *يا مريم*. الشارقة: منشورات الجمل.

شهلاء العجيلي. (2004). *النص الروائي ودوال الهوية الثقافية*. ج35، مج1: مجلة علامات.

صامويل هنتنجتون، تر: طلعت الشايب. (1999). *صدام الحضارات: اعادة صنع النظام العالمي*. القاهرة: دار سطور.

ظاهر محسن هاني. (2016). *الدولة والمواطنة نحو مفهوم مركب للهوية الوطنية العراقية*. مجلة جامعة بابل- العلوم الانسانية: مج24، ع1.

ظاهر محسن هاني. (بلا تاريخ). *الدولة والمواطنة، نحو مفهوم مركب للهوية الوطنية العراقية*.

عماد جاسم. (2019). *الهوية المسيحية في الرواية العراقية (دراسة تحليلية لروايات ما بعد 2003)*. بغداد، ط2.

لؤي خزعل جبر. (2010). *الهوية الوطنية العراقية-دراسة ميدانية*. بغداد-العراق: المركز العراقي للمعلومات والدراسات، ط1.

محمد سبيلا. (2009). *مدارات الحداثة*. بيروت: الشبكة العربية للابحاث والنشر.

نبيل الربيعي. (2017). *تاريخ اليهود (859- 1973)*. لبنان-بيروت: دار الفرات.